

## آليات الحجاج اللغوية في بخلاء الجاحظ - قصة الكندي امودجا-

الدكتورة : نجاح مدلل

أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

medellel-nadjah@univ-

eloued.dz

### مقدمة :

زخر التراث العربي بألوان الآداب والفنون ، فلاقي النص التراثي حفاوة من قبل المشتغلين في مجال النقد الأدبي وشتى المناهج الحديثة التي تعنى بالنص ورصد جمالياته وتحديد سماته والعناية بنسيجه اللغوي وخصائصه الأسلوبية وبناء المتعددة، كشفا عن فحواه ومعناه ، ومنها ما اهتم بالمؤلف بمكوناته النفسية وظروفه الاجتماعية .

ويعد العصر العباسي من أكثر العصور تفردا من حيث الانتاج الأدبي تنوعا وأسلوبا وثقافة ، ساعد في ذلك امتزاج الثقافات ونشاط حركة الترجمة ، فأضحت هذه الفترة من تاريخ الآداب وفنونها ؛ اشعاعا فكريا قل نظيره ، ويعد (الجاحظ ) أحد أعمدة هذا العصر ومن بين الذين برعوا في إنتاجهم الأدبي والفكري ، وبلغت شخصيته الأدبية والعلمية ما لم يبلغه معاصروه من الإبداع والعطاء في شتى المعارف والعلوم ، حيث تباينت مؤلفاته وتنوعت فكانت وليدة ذكاء حاد وفكر جاد ، ودعابة وطرفة ساخرة أحيانا أخرى ، وكان هذا الأخير ما لمسناه من خلال مؤلفه ( البخلاء) الذي صور فيه نفسية وطبائع البخيل بطريقة ساخرة وبأدق وصف وأبلغ تعبير ، فصورهم تصويرا واقعيا أبرز من خلاله حركاتهم ونظراتهم وفضح أسرارهم وخفاياهم ، فكان وصفه تحليلا نفسيا معمقا لفئات متميزة من المجتمع ، وتصويرا للأوضاع الأخلاقية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي ، وأكثر ما يجذب قارئ هذا الكتاب هو دقة التصوير وبراعة التخيل ، وقد جمع الجاحظ فيه قصصا عن البخل والبخلاء مأخوذة من الحياة الواقعية اليومية المعيشة ، وهي مادة مختارة مما سمعه الجاحظ ورآه وخبره ، وأصحابها معروفون ومعرفتهم تضيف إليها حسنا ، ولقد ستر الجاحظ أسماء نفر من أصحابها وصرح بالعض، ويقصد أن

يصور في هذا الكتاب طبائع الناس وخصوصا أولئك الذين ييخلون بشيء دون شيء وييخلون على أنفسهم خاصة ، ويتحملون كل مشقة في أجسامهم وفي أنفسهم في سبيل ادخار المال ، كما يتساهلون في سبيل ذلك بكثير من مثلهم العليا ، وقد صاغ كل هذه الأخبار بنبرة تهكمية ساخرة نابعة من ثقافته الخصبية المستمدة من خصوصيات عصره وما يحمله من تناقضات اجتماعية وأخلاقية .

ومن بين هذه القصص قصة الكندي ، فقد عنونها الجاحظ باسم بخيلها وهو أبو اسحاق الكندي صاحب البيت المؤجر ، ولقد جعل الجاحظ قصته أطول قصة في بخلائه ، واستحضر كل طاقته الفنية بكل مقوماتها لتحليل شخصية البخيل ، فخلد بذلك بخل الكندي في مظاهره الاجتماعية والنفسية ، وبين تنوع أساليبه التي تتراوح بين التعليل والاقناع والحجاج ، التي يدافع من خلالها عن فكرة البخل التي اتخذها منهجا في حياته ، ومن هنا كان عنوان بحثنا : آليات الحجاج اللغوية في بخلاء الجاحظ - قصة الكندي انموذجا\_ وقد ارتأينا أن نركز على الآليات اللغوية دون البلاغية والمنطقية لأنه لا يسع المجال لعرضها جميعا ، ومن هنا يمكننا طرح التساؤل التالي : ماهي تقنيات الحجاج اللغوية التي اعتمدها الجاحظ على لسان الكندي في سياق عرضه لمذهب البخل ؟

إن بخيل الجاحظ يرى في بخله منهج حياة وطريقة تفكير ، فهي ليست صفة عارضة أو صفة ينكرها كما يفعل الكثير من البخلاء ، ولأجل هذا نجده يتحصن بالعديد من الأساليب اللغوية وطرق الاقناع مدافعا بذلك عن رأيه ومعتدا أسلوب التعليل والتبرير والحجاج " إذ أن غاية المتكلم هي الاقناع " (1)، وقد لجأ الجاحظ لأساليب متنوعة للإقناع على لسان بخلائه ، ولا يزال النقاد والدارسون يختلفون حول بخلاء الجاحظ بين قسم حجاجي استدلالي يسير فيه البخيل وفق استراتيجية متناسقة متماسكة تبدأ بمقدمات لتصل تدريجيا ومنطقيا الى النتيجة ، وبين قسم قصصي يتميز بطابع السرد والتجريب من أجل تصوير حياة البخيل بين الناس وسلوكه ونفسيته وصراعه الباطن وطرق تعامله مع الناس ، وتصرفاته على مائدة الطعام وغير ذلك ، ويسعى هذا البحث لبيان حجج البخلاء وآليات الاقناع لديهم ، لإقناع الآخرين بجدوى الاقتصاد وعدم التفریط .

### بناء الحوار الاستهلاكي في القصة :

إن كتاب الجاحظ في حقيقته مبني على الجانب السردي القصصي ، ذلك أنه يجوي نماذج قصصية لأشكال البخل وضروبه ، وكان يستند في إيراد أخباره على الرواية الشفهية المتداولة ، فكان عليه نقلها

كما هي أو كما تروى ، ذلك لأن من أهم مكونات الأخبار العربية والسمات الشكلية الثابتة فيها في القرون الهجرية الأولى ؛ السند ، فقد كانت القاعدة في الأخبار التي أوردوها أنها تفتتح بالإسناد ، وقد غدا إيراده استهلالا قبل سرد الأخبار جزءا من الناتج الثقافي العربي ، بوصفه تقليدا من تقاليد طرائق تداول الأخبار<sup>(2)</sup> ، وقد أشار بعض الباحثين الى أن الجاحظ " يعمد الى التنوع في كلماته الاستهلالية ، فيوظف عادة الفعل المبني للمعلوم ( حدثني ، خبرني ، روى ، قال ) ، وهنا يكون استحضاره للراوي على نوعين : راو منفرد ، سواء كانت شخصية معروفة متداولة ، أو غير معروفة ، يسعى الجاحظ الى تعريفنا بها ، وقد يكون راو متعدد معروف ، كقوله : ( قال أصحابنا من المسجدين ) ، أو أن يكون الراوي متعدد غير معروف ، مثل قوله : ( قال أصحابنا )"<sup>(3)</sup> ، أما حديثه في قصة الكندي ، فيستهلها بقوله : ( قال معبد ) ، وفي هذا النوع من الصيغ الاسنادية وما جرى مجراها يشترط وجود طرفين : الأول وجود راو أول يروي حكاية ما ، وهو في أغلب الأحيان شخص له وجود تاريخي ، ويحمل اسما معلوما ، وما إن تنتهي مهمة الراوي الأول حتى تبدأ مهمة الراوي الثاني ، وهو الجاحظ ، فتراه راويا محايدا ينقل عن الآخرين أحداث قصته ، ملقيا العهدة على من روى " <sup>(4)</sup> ، ولقد تجاوز الجاحظ دور ناقل الخبر الى دور المبدع ، الذي يعيد تشكيل ما سمعه من أحداث ليتوافق مع البناء الشكلي والمعنوي الذي اختاره لحكاياته ، وليتوافق مع كيفية ظهورها في الكتاب وغايته من ذلك الظهور<sup>(5)</sup> .

إن حكاية الكندي يمكن أن نقسمها الى طورين من الناحية السردية ، أما الطور الأول فنسميه مرحلة الاعداد ، ولقد أقامه الجاحظ على بنية الحوار ، وقد جاء فيه من السؤال والجواب ما يحرك عقل المتلقي ليدفعه دفعا الى مواصلة القراءة سريعا ليعرف إجابات لها ، وليجعله في حالة انتباه وبقظة في التواصل مع النص ، ثم يبدأ الطور الثاني في عملية السرد وهو يتعلق بالحديث الذي ألقى به البخيل ، وهو حديث يمثل الحيلة أحيانا والحجة أحيانا أخرى التي يلجأ إليهما البخيل ، وتعكسان موضوع الحكاية كلها وما يفكر فيه ، فهو بالتأكيد يشعر بالقلق خوفا من اعتباره بخيلا<sup>(6)</sup> ، والسياق العام للنص يحدد هالنزول في دار الكندي ، والكندي هو الشخصية المحورية فيه ، وسمات هذه الشخصية تكشفها لنا العلاقة بسكان الدار ، فهو الذي يفرض عليهم طبيعة تلك العلاقة فرضا ؛ بأن تكون إقامتهم لديه دعاية للإيجار وقضاء للمصالح والمهام ووفاء بالشرط .

(وما معنى الوفاء بالشرط؟) هكذا سأل الجاحظ ، وفي سؤاله إثارة لفضول القارئ ودهشته ، ليعلم بأمر هذا الشرط وهو ، أن يقدم له سكان داره روث بمائهم وفضلات طعامهم بل شيئاً من طعامه نفسه طالما كانت إحدى نساء بيته تكابد مشقة الحمل وتنتظر حادثاً سعيداً ، وفوق هذا كله لا يرى بأساً أن يحل عليهم ضيفاً يثق في استحقاقه الحفاوة والاكرام ! فأى نوع من المؤجرين هو ؟ وما أصبر سكانه عليه ؟ فيجيب الجاحظ على لسان معبد الراوي : " فكانوا لطيبه وإفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك " (7) ، ثم يشرح معبد الراوي بسرد القصة التي تبدأ بنزول ضيفين على الدار التي يسكنها مؤجرة من الكندي وهما ابن عمه وولده ، وأي شيء في ذلك يستدعي ارسال خطاب من الكندي يستفسر فيه عن مقامهما وتحديد المدة التي سيمكثانها معه؟ يقول فيها : " إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين ، احتملنا ذلك ، وإن كان اطماع السكان في الليلة الواحدة ، يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة " (8) ، ليرد عليه معبد بخطاب جاء فيه : " وما يضرك من مقامهما ، وثقل أبدأهما على الأرض التي تحمل الجبال ، وثقل مؤنتهما على دونك ؟ فاكذب إلي بعدرك لأعرفه " (9) ، وكان هذا الطلب نقطة الانطلاق التي نبع منها عرض وجهة نظر صاحب الدار ، وقد هيا الجاحظ المتلقيين الى معرفتها عبر هذه المفارقات ، وإبراز الغرابة في مسلكه مع سكانه من بداية الحكاية التي رواها معبد ، وحسبنا هنا أن نذكر الجملة الممهدة لحديثه كله ، " ولم أدر أني أهجم على ما هجمت ، وأني أقع منه فيما وقعت فكتب لي ... " (10) ، ومن هنا يبدأ الطور الثاني من النص وهو خطاب الكندي الذي اتسم بالطول ، وكان ذلك مقصوداً من قبل الجاحظ حتى يتسع المجال أمامه لعرض الاستراتيجية الخطابية المتبعة من طرف صاحب الدار ( بخيل الجاحظ) لتحقيق أهدافه وأغراضه ، ومنها الاقتناع الذي يستلزم استراتيجية معينة يمكن أن نسميها استراتيجية الاقتناع التي توظف آليات متعددة مثل الآليات الحجاجية التي تتخذ فيها الأقوال "أدلة تساق أمام المرسل إليه حتى يقنعه دون تلاعب بعواطفه أو تعيير به ، ويوظف لها كافة العمليات شبه المنطقية التي تتجسد باللغة الطبيعية " (11) .

ويشرح الكندي في تبرير وجهة نظره لمعبد بخطاب كتب فيه : " والخصال التي تدعو الى ذلك كثيرة ، وهي قائمة معروفة ، من ذلك سرعة امتلاء البالوعة ، وما في تنقيتها من شدة المؤنة ، ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت كثرت المشي على ظهور السطوح المطينة ، وعلى أرض البيوت المخصصة ، والصعود على الدرج الكثيرة ، فينفشر لذلك الطين ، وينقلع الجص ، وينكسر العتب ، مع انثناء الأجزاء لكثرة الوطء وتكسرها لفرط الثقل ، وإذا كثرت الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال ، تهمشت الأبواب ،

وتقلعت الرزات ، وإذا كثر الصبيان ، نزعت مسامير الأبواب ، وقلعت كل ضبة ، ونزعت كل رزة ، وكسرت كل حوزة ، وهشموا بلاطها ، وهذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف...<sup>(12)</sup>.

بني هذا الخطاب الحجاجي على قصدية التأثير في المتلقي (معبد) واستمالته نحو المسألة المعروضة ، فهو مرتبط بالاقناع ، فالكندي هنا (المحاجج) يعرض دعواه مستثمرا مختلف الوسائل اللغوية الممكنة للتأثير في موقف المخاطب ، ويظل الاختلاف هو الباعث على الحجاج ، فكل من معبد والكندي مختلفان في الرأي ، حيث بعث له معبد قائلا : " وما ضرك من مقامهما ، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال ... " <sup>(13)</sup> ، لذلك أخذ الكندي في ادراج سلسلة من التبريرات المطولة يثبت فيها وجهة نظره مستدرجا مخاطبه للإذعان لرأيه ، مستعينا في ذلك بآليات حجاجية لغوية عديدة نذكر منها :

### • الآليات اللغوية :

حاول الجاحظ على لسان ( الكندي ) التأثير في المتلقي واقناعه بحمله على تبني أفكاره والتسليم بصحة موقفه ، فعمد الى اختيار الحجج المناسبة مستخدما عدة أدوات لغوية وتقنيات أسلوبية ومن أهمها :

#### 1- أسلوب التعليل:

لجأ الجاحظ في خطاب البخلاء الى استخدام ألفاظ أسهمت في اقناع المتلقي بربطها بين المقدمات والنتائج ، كالمفعول لأجله ، ولام التعليل .

أ - المفعول لأجله : هو " مصدر يدل على سبب ما قبله ويشارك عامله في وقته " <sup>(14)</sup>.

ومن المواضع التي ورد فيها المفعول لأجله قول الجاحظ على لسان الكندي : " وربما استأجر الى جنب السجن لينقلب أهله إليه ، والى جنب صراف لينقلب عليه ، طلباً لطول المهلة والستر ، ولطول المدة والأمن " <sup>(15)</sup> ، وفي موضع آخر يظهر المفعول لأجله في قوله : " وربما أخذها ومعه امرأة يفجر بها ، فيجعل استيجار البيوت وتصفح المنازل ، علة لدخولها والمقام ساعة فيها ، فإذا استقر في المنزل ، قضى حاجته منها ، ورد المفتاح " <sup>(16)</sup> ، ففي قوله هذا بيان لمظاهر الخلل في المجتمع من خلال بيان مسلك بعض المستأجرين ، ومنها العدوان على الأعراس الذي يتخذ من الإيجار ستاراً له ، وكذلك جرائم

السرقاا واللصووية ، فهذه حجة توجه الملفوظ نحو التأكيد على حرص هذا الرجل وإصراره على مذهبه ، ومحاولته إعطاء شرعية لسلوكه ، ويكشف هذا التعامل حقيقة مثل هذه النماذج البشرية التي تجعل المتلقي في حيرة ودهشة .

## ب - لام التعليل :

تعد أدوات التعليل من أهم الأدوات اللغوية التي يستعين بها الخطاب الحجاجي ، ومنها الرابط الحجاجي ( اللام) الذي يستعمل لتبرير المواقف ووجهات النظر ، ويمكن أن تمثل له بقول الكندي : " ويسكنها الساكن حين يسكنها ، وقد كسحناها ونظفناها لتحسن في عين المستأجر ، وليرغب فيها الناظر ، فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا لا تصلحه إلا النفقة الموجعة " <sup>(17)</sup> ، وفي موضع آخر يقول : " ولا نهدام المنازل غاية قريبة ومدة قصيرة ، والساكن فيها هو من كان المتمتع بها ، والمتنفع بمرافقها ، وهو الذي أبلى جدتها وذهب بجلاها وبه هرمت وذهب عمرها ، لسوء تديره " <sup>(18)</sup> ، لقد أراد (الكندي) أن يبطل حجج (معبد) حين قال له (وما ضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الأرض ...) وهي الحجة التي استند إليها معبد لإظهار بخل الكندي ، ولكن هذا الأخير رد بمجموعة من الحجج المضادة التي تبرر مشروعية أفعاله وتصرفاته ، ويستند هذا القول على رهان الاختلاف ، فحين " يتفق الجميع فلا مبرر لما يقال ، وحين يكون القول الحجاجي مغلقا فلا يشكل قولاً حجاجياً " <sup>(19)</sup> .

إن حجاج الكندي في القول السابق يوهم بالصحة في ظاهره ، لكنه في حقيقته من أساليب المغالطة التي تعتمد الحيلة والتضليل وإيهام المتلقي بصحة التعليل .

## 2 - أسلوب الشرط :

استعان الجاحظ بالعديد من الأساليب اللغوية التي تخدم نصه الحجاجي ، ومن بينها أسلوب الاحتمال والشرط الذي عادة ما يلجأ إليه البخيل بزيادة الاحتمالات والفرضيات باستخدام الشرط ليبعد عن نفسه صفة البخل ويلوي عنق الحقيقة ، ذلك " أن أداة الشرط موضوعة لإفادة أن مدخولها الذي هو الشرط واقع موقع الفرض والتقدير " <sup>(20)</sup> ، ونجد في قصة الكندي تنوع في استخدام الشرط بين (إذا) و(إن) .

### أ - أسلوب الشرط باستخدام ( إذا ) :

من ذلك قوله : " أن الأقدام إذا كثرت ، كثر المشي على ظهور السطوح المطينة ، وعلى أرض البيوت المخصصة ، والصعود على الدرج الكثيرة ، فينقشر لذلك الطين ، وينقلع الجص ، وينكسر العتب ... وإذا

كثير الدخول والخروج والفتح والاقلاق والاقفال ، تمشمت الأبواب ، وتقلعت الرزات ، وإذا كثر الصبيان ، نرعت مسامير الأبواب، وقلعت كل ضبة ، ونرعت كل رزة، وكسرت كل حوزة... و إذا كثر العيال والزوار والضيغان والندماء ، احتيج من صب الماء ، والجرار الراشحة ، الى أضعاف ما كانوا عليه... " (21) يدافع الكندي عن فكرته مستخدماً أسلوب الشرط بالأداة ( إذا) دفاعاً يظهر فيه إشفاقاً على الأرض المخصصة المقرمدة ، والدرج الكثيرة والأعتاب والأبواب وما فيها من مسامير ورزات وأقفال... ، على الرغم من احتمالية عدم وقوع كل هذا ، إلا أن البخيل دائم التوقعات ، يتبع في كل مرة جملة الشرطية بنتيجة يبرر بها بخله ، وعلى الرغم من صفة البخل إلا أننا نلمح في الأسلوب طرافة وفكاهة ، وقدرة على إقناع المتلقي في أحيان كثيرة .

### ب - أسلوب الشرط باستخدام ( إن ) :

يتضح ذلك بقوله : " وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته ، والنفاق في صناعته ، لم يرى أن يزيد قيراطاً في ضريته ، ولا أن يعجل فلساً قبل وقته... ثم إن كانت الغلة صحاحاً دفع أكثرها مقطعة ، وإن كانت أنصافاً وأرباعاً دفعها قراضة مفتتة... فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئاً ، حلف بالغموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله... فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها... وإن كان غلاماً خدعه... " (22) ، فالبخيل بهذه الجمل الاحتمالية يريد أن يبرر موقفه من البخل والشح الذي يتبناه ، فيقدم احتمالات فرضية تخوفاً من أي خرق لفكرة بخله ، فالبخيل يلجأ الى هذه الأساليب بدهاء وذكاء لإثبات صفات أخرى لديه مثل ( الحرص ، الاحتياط ، حسن التصرف ، رفض كل مظاهر الاخلال والفساد والتبذير ، المحافظة على الممتلكات ، حسن الجوار ..) حتى يصل الى مقصده ، وهو اقناع الآخر بأن سلوكه هو الصواب .

### 3 - استخدام الأداة ( كم ) :

لقد تكرر استخدام الأداة ( كم) في نص الجاحظ على لسان الكندي ، وذلك ليس عبثاً بل تكرر مقصود ، فهو يعد آلية لغوية يلجأ إليها المحاجج لترسيخ أفكاره ، ونقل معتقداته وتثبيت الكلام ، ليصل الى المتلقي فيقتنع به ، " فهو يساعد أولاً على التبليغ والافهام ، ويعين المتكلم ثانياً على ترسيخ الرأي والفكرة في الأذهان ، فإذا ردد المحتج لفكرة حجة ما أدركت مراميها ، وبانت مقاصدها ، ورسخت في

ذهن المتلقي ، وإن ردد رابطا حجاجيا أقام تناغما بين أجزاء الخطاب ، وأكد الوحدة بين الأقسام أو أوهم المتلقي بها " (23) .

وإذا عدنا الى نص الجاحظ ، وجدناه يوظف هذه الآلية اللغوية على لسان بخيله ( الكندي ) فيقول : " وإذا كثرت العيال والزوار والضيفان والندماء ، احتيج الى صب الماء والجرار الراشحة ، الى أضعاف ما كانوا عليه ، فكم من حائط قد تآكل أسفله ، وتناثر أعلاه ، واسترخى أساسه ، وتداعى بنيانه ، من قطر حب ورشح جرة ، ومن فضل ماء البئر ، ومن سوء التدبير ، وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الطبخ ، ومن الوقود والتسخين ، والنار لا تبقى ولا تذر ، وإنما الدور حطب لها ، وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها ، فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة ، فكلفتهم أهلها أغلظ النفقة ، وربما كان ذلك عند غاية العسرة وشدة الحال " (24) ، فالمتكلم يستعين بتكرار بعض العبارات لأنه يعي أن التكرار " يقوي حجته في كل مرة يتلفظ بها ، وذلك بالرغم من أن الألفاظ هي لم تتغير ، ولكن المتغير المصاحب للتلفظ هو الأثر التداولي الذي يريد تحقيقه " (25) .

#### 4 . الروابط الحجاجية :

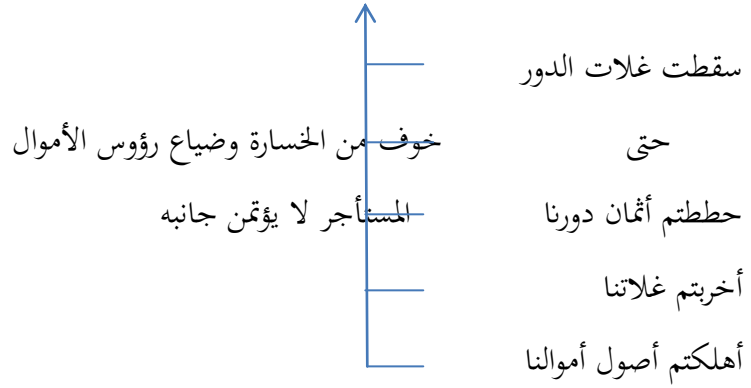
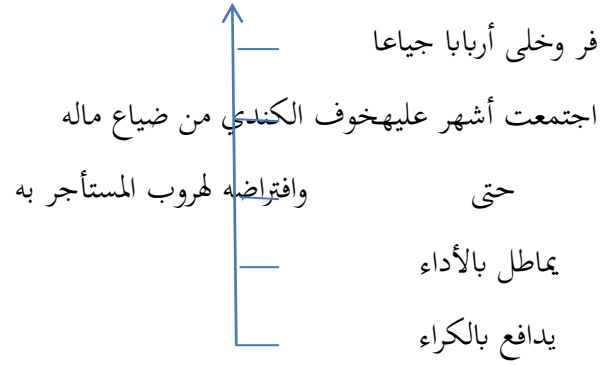
تعتبر الروابط الحجاجية عنصرا مهما في البناء الحجاجي للخطاب ، فهي أدوات تساعد المتلقي على اكتشاف ما يعتبره الباث صحيحا ، ومن بين الروابط التي وظفها الجاحظ على لسان بخيله ( الكندي ) :

##### أ - الرابط الحجاجي ( حتى ) :

يساعد هذا الرابط على تقوية تسليم المتلقي بالنتيجة التي يود المتكلم توصيلها ، وجاء في قصة الكندي قول الجاحظ : " ثم إن كثيرا منكم يدافع بالكراء ، ويماطل بالأداء حتى إذا اجتمعت أشهر عليه فر وخلي أربابها جباعا " (26) ، وفي قوله كذلك : " وجرم آخر ، وهو أنكم أهلكتكم أصول أموالنا ، وأخربتكم غلاتنا ، وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستغلاتنا ، حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة ، ومن أعين العوام والحشوة " (27) .

يساهم الرابط (حتى) في ترتيب الحجج داخل القول الذي يخدم نتيجة واحدة ، فيؤدي ذلك الى تقويتها ، وتظهر عملية التقوية للحجة في حركة التوجيه الذي تقوم به (حتى) في إخراج الملفوظ من العام الى الخاص ومن الكل الى الجزء ، ويتحقق ذلك بفضل الوحدات المعجمية التي تسبق الرابط الحجاجي والتي تليه .

ويمكن أن نمثل لهذا المسار الحجاجي بالسلم الحجاجي التالي :



#### ب - الرابط الحجاجي (بل) :

وهو من أهم الروابط التي تساهم في إنشاء السلم الحجاجي وتمييز ضعيف الحجج من قويها، " ويعطي للملفوظ الحجة مكانها من السلم ويسوغ لها أن تكون مفضية الى النتيجة " (28)، وهذا ما نراه ماثلا في خطاب الجاحظ حين قال من خلال قصة الكندي " فأنتم لم تريدوا نفعا بترغيبهم في الكراء ، بل إنما أردتم أن تضرونا بتزهيديكم في الشراء " (29)، ففي هذا القوا صاغ الكندي حججه بالنفي في البداية ثم الاضراب عما سبق بـ ( بل ) التي تنسف كل حكم سابق قبلها . وتؤكد ما يليها ، " والمهم هنا هو أن الحجج لا تتساوى ولنها تترتب في درجات قوة وضعفا ، ومأتى هذا الترتيب هو أن الظواهر الحجاجية تتطلب دوما وجود طرف آخر تقيم معه علاقة استلزام " (30).

#### 5 - العوامل الحجاجية :

تختلف العوامل الحجاجية على الروابط الحجاجية ، فدور العوامل ليس الربط بين الحجة والنتيجة ، ولكنه " يقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية لقول ما " (31) ، ومن العوامل الحجاجية التي استعان بها الجاحظ على لسان الكندي :

## أ - استخدام أداة النفي والاستثناء ( لا... وإلا):

إن النفي والاستثناء بـ (لا... وإلا) من العوامل الحجاجية المهمة ، وإلا هذه ليست استثناء " وإنما هي مسبقة بنفي ، فهي أداة قصر ، ووظيفتها قصر ما قبلها على ما بعدها ، والقصر توكيد وإيجاب أبدا" (32) ، وبالرجوع الى قصة الكندي، نجد هذا العامل الحجاجي ماثلا في خطابه إذ يقول: " ثم لا ينصبون التناير ، ولا يمكنون للقدور إلا على متن السطوح حيث ليس بينها وبين القصب والخشب إلا الطين الرقيق والشيء لا يقي" (33) ، وفي قوله كذلك : " فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا ، لا تصلحه إلا النفقة الموجهة ، ثم لا يدع مترسا إلا سرقه ، ولا سلما إلا حملة ، ولا نقضا إلا أخذه ، ولا برادة إلا مضى بها معه " (34) ، وفي موضع آخر يقول : " ثم لا يدع مزبقا ولا مكحلا ولا زائفا ولا دينارا بهرجا إلا دسه فيه ودلسه عليه، واحتال بكل حيلة وتأتى له بكل سبب " (35) ومعظم حديث الجاحظ الذي أجراه على لسان الكندي منصب على العلاقة المتوترة بين المالك والمستأجر ، ومنها التأخير في سداد قيمة الإيجار ، أو الخداع والتدليس فيه ، ومنها عدم الحفاظ على الدار والتقشير في صيانتها وقد كان صاحبها مهتما بتزيينها وتجميلها في أعين الناظرين ، وطبيعة هذه العلاقة قائمة على المفارقة واختلاف التوجهات .

## ب - العامل الحجاجي (ربما) :

لقد اختلف النحويون في معنى (ربما) ، فهناك من يرى أنها تفيد التقليل ، ومنهم من يرى أنها تفيد التأكيد ، ولقد استعان بها الجاحظ في عرض الحجج على لسان بخيله ، لإقناع المتلقي بصحة توجهه ، وجاء في كلام الكندي : " ربما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء ، أن يدعي أن لهشقيصا وأن له يدا ، ليصير خصما من الخصوم ومنازعا غير غاصب ، وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها ، فيجعل استيجار البيوت وتصفح المنازل علة لدخولها والمقام ساعة فيها ، فإذا استقر في المنزل ، قضى حاجته منها ورد المفتاح ، وربما أكترى المنزل وفيه مرمة ، فاشترى بعض ما يصلحها، ثم يتوخى عاملا جيد الكسوة ، وجيرانا أصحاب آنية وآلة ، فإذا شغل العامل وغفل ، اشتمل على كل ما قدر عليه ، وتركهم يتسكعون ، وربما استأجر الى جنب سجن لينقلب أهله إليه، والى جنب صراف لينقلب عليه ، طلبا لطول المهلة والستر ، ولطول المددة والأمن ، وربما جنى الساكن ما يدعو الى هدم دار المسكن ، بأن يقتل قتيلا أو يجرح شريفا ، فيأتي السلطان الدار - وأربابها إما غيب وإما أيتام وإما ضعفاء- فلا يصنع شيئا دون أن يسويها بالأرض " (36) .

إن الحجاج بالعامل ( ربما ) جاء متساوقا مع النتيجة المحتملة في كل مرة ، فكما لاحظنا أن بحيل الجاحظ دائم التوقعات ، يضع احتمالات قد لا تحدث ، ويفترض لها نتائج ، لكي يقنع الآخر بصحة رأيه ومعتقده ويجعله يذعن لقوله ويخضع له .

#### خاتمة :

لقد أفضت هذه الدراسة الى استخلاص أنه لا يمكن فهم الخطاب إلا بإدراك الظروف والملايسات التي أسهمت في إنجازه ، وهي ظروف اجتماعية وثقافية رسمت لنا حدود ومعالم العصر العباسي الذي عايشه الجاحظ وبخلائه ، وبلاغة الإقناع التي اتصفت بها شخصية الكندي من خلال قصته تتضح من خلال ما استثمره من آليات وتقنيات لغوية رمى من خلالها الى الدفاع عن فكرته وسعى لحصول الإقناع لدى المتلقي .

إن قراءتنا لقصة الكندي ضمن كتاب البخلاء للجاحظ تحتمل وجهات نظر مغايرة ، وما قدمناه من رصد وتحليل لآليات الإقناع عبر وسائل لغوية ، لا يعد كونه إلا محاولة لا نجرؤ على الزعم بصحتها وببداهة نتائجها ، فهي تأمل للقدرة اللافتة لنصوص التراث العربي القديم ومدى ثرائها وجمالها الأسر الفاعل في التعبير .

#### الهوامش والإحالات :

- (1) عباس حشاني، مصطلح الحجاج - بواعثه وتقنياته، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 9، 2013، ص 275.
- (2) ينظر، مُجد القاضي، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998، ص 272.
- (3) بعيرة عقيلة، بنية الخطاب السردى في بخلاء الجاحظ، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012، ص 51.
- (4) شخاترة خولة، بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ، دار الينايع، عمان، 1996، ص 116.
- (5) المرجع نفسه، ص 117.
- (6) ينظر، فدوى مالطي، بناء النص التراثي - دراسات في الأدب والتراجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص 44- 45.
- (7) الجاحظ، البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف ط 5، دت، ص 139.
- (8) المرجع نفسه، ص 139.
- (9) المرجع نفسه، ص 139.

- (10) المرجع نفسه ، ص 139.
- (11) محمد يحياتن ، تحليل الخطاب من خلال نظرية الحديث والتلفظ ، مجلة اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، العدد 14 ، ديسمبر 1999 ، ص 337.
- (12) الجاحظ ، البخلاء ، ص 139-140.
- (13) المرجع نفسه ، ص 139.
- (14) حسن عباس ، النحو الوافي ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1966 ، ج2 ، ص 225.
- (15) الجاحظ ، البخلاء ، ص 143.
- (16) المرجع نفسه ، ص 143.
- (17) المرجع نفسه ، ص 141.
- (18) المرجع نفسه ، ص 142.
- (19) عبد السلام عشير ، عندما نتواصل نغير ، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، افريقيا الشرق ، المغرب ، 2007 ، ص 17.
- (20) السيد محمود الهاشمي ، بحوث في علم الأصول ، مباحث الدليل اللفظي ، دت ، ج3 ، ص 149.
- (21) الجاحظ ، البخلاء ، ص 140.
- (22) المرجع نفسه ، ص 142.
- (23) سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي القديم ، بنيته وأساليبه ، عالم الكتب الحديث ، ط 2 ، 2011 ، ص 168.
- (24) الجاحظ ، البخلاء ، ص 140.
- (25) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقارنة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط 1 ، 2004 ، ص 493.
- (26) الجاحظ ، البخلاء ، ص 141.
- (27) المرجع نفسه ، ص 144.
- (28) عز الدين ناجح ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، مكتبة علاء الدين ، تونس ، ط1 ، 2011 ، ص 146.
- (29) الجاحظ ، البخلاء ، ص 146.
- (30) شكري المبخوت ، الحجاج في اللغة ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو الى اليوم ، جامعة الآداب والفنون والعلوم الانسانية ، اشراف حمادي صمود ، تونس ، منوبة ، ص 364.
- (31) أبو بكر العزاوي ، الخطاب والحجاج ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، ط1 ، 2010 ، ص 56.
- (32) مهدي المخزومي ، في النحو العربي نقد وتوجيه ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1986 ، ص 240.
- (33) الجاحظ ، البخلاء ، ص 140-141.

(34) المرجع نفسه ، ص 141.

(35) المرجع نفسه ، ص 142.

(36) المرجع نفسه ، ص 143.